دور الفلاحين في الثورة

بقلم : جلول الطالباني

في هذه الحلقة يكمل الاستاذ جلال الطالباني تحليله لدور الطبقة العاملة ، وبشكل خاص ما هو متعلق بدور حزبها الطليعي، لينتقل من ثم الى البحث في دور الفلاحين ، مسلطا الضوء على وضعهم الاجتماعي وارتباطهم بالانتاج الصغير الوزع الذي يخلق تمايزات فيما بين فئاتهم المختلفة ، تؤثر في تحديد موا قفهم من الثورة .

وبهذه الحلقة يكون الكاتب قد استكمل البحث في ادوار مختلف الطبقات الاجتما عية في مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي لينتقل بعد ذلك الى الحديث عن اهداف الجبهة الوطنية التقدمية المتحدة .

واذ يقترب بحث الاستاذ الطالباني من نهايته ، تذكر أسرة ((الهدف)) بانها قد عرضت هذه الوجهة النظر، لافساح المجال امام حوار وطني تقدمي اشتراكي ، ملتزم بالفكر الماركسي ـ اللينيني ، حول هذه الموضوعة البالغة الاهمية بالنسبة للنضال الوطني التقدمي الذي تخوضه جماهيرنا على اتساع الساحة العربية ، وهي لذلك تعلن ترحيبها بكل ما يأتيها حول هذا الموضوع شرط التزامه المنهج العلمي .

وكان البحث في العدد الماضي قد توقف عند نقطة : ((كيف تستطيع الطبقة العا ملة ان تمارس دور القيادة ، وفيما يلي تتمة هذه النقطة ، قبل الدخول في العنو ان الجديد .

« الهـدف »

وطبيعي ان الحزب لا يطمح في ادخال « الطبقة » في الحزب رغم حرصه الشديد على الطاقة الوثيقة بالطبقة وعلى كسب ثقتها وانتمائها بسياسته وشعاراته . فالحزب هو فصيلة الطليعة للطبقة العاملة فقط . ولكن وحدة الطبقة من الامور الاساسية الهامة التي يتوقف على تحقيقها الانتصار في النضال لذلك يجب النضال من اجل تحقيق وحدة الطبقة العاملة النضالية ، وحدة مبدئية صالبة ، وحدة العناصر الواعية ، العناصر المؤمنة بالمبادىء . ولا ريب ان تحقيق مثل هذه الوحدة الضرورية امر معقد وشاق يحتاج الى النضال المثابر والعمل الدؤوب والسعي المتواصل لاقناع جماهير الطبقة العاملة باهمية الوحدة وضرورة الوحدة المبدئية باعتبارها شرطا رئيسا لانتصار الطبقة العاملة ولقيامها بمهام دور الطليعة في الثورة والمجتمع .

عن ضرورة وحدة الطبقة العاملة وارتباطها الوثيق بالحزب الطليعي وعن عدم امكانية ادخال الطبقة كلها في الحزب يقول لينين ما يلي :

« نحن حزب الطبقة ولذلك فالطبقة كلها على وجه التقريب (اما في وقت الحرب اي في عهد الحرب الاهلية فالطبقة كلها على الاطلاق) يجب ان تعمل تحت قيادة حزبنا وان تتراص حوله اكثر ما يمكن . اما ان تصبح الطبقة كلها تقريبا او الطبقة بأسرها يوما ما وفي عهد الرأسمالية في حالة تستطيع معها ان ترتفع حتى تبلغ درجة الوعي والنشاط مثل فصيلتها الطليعية اي مثل حزبها الاشتراكي الديمقراطي فان التفكير في مثل ذلك هو ضرب من المانلوفية وشكل من السير في ذيل الحركة . وان المنظمة النقابية (وهي منظمة انتمائية اكثر من الحزب وأقرب تناولا الى ادراك الجماهير غير المتقدمة) لا تستطيع في عهد الرأسمالية ان تشمل الطبقة العاملة بأسرها تماما . وليس هناك اشتراكي ديمقراطي واحد سليم التفكير داخله الشك يوما في ذلك » . ص ١٣٦ ـ ١٢٧ من كتاب اسس اللينينية وحول مسائل اللينينية بقلم ستالين .

ثالثا :

ضمان تحالف العمال والفلاحين باعتبار هذا التحالف الاساس المتين للجبهة الوطنية التي تناضل الطبقة العاملة لايجادها وتشكيلها من العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية الوطنية شريطة ان يباشر طليعة الطبقة العاملة قيادتها لهذه الجبهة المتحدة ، ولسائر الطبقات الوطنية المنضمة اليها ، فانا من اهم المسائل التي تواجهنا مع الفلاحين اي

رابعا :

على الطبقة العاملة المنسجمة بمبادىء الاممية الثورية ان تتبنى المشاعر القومية الصادقة وتحتضن المطالب القومية الديمقراطية وترفع الشعارات القومية الثورية وتتقدم لتتولى هي ـ البورجوازية ـ قيادة الحركةالقومية التحررية ولتقود ـ لا البورجوازية ـ التيار القومي والوحدوي وذلك بشكل ثوري مبدئي سليم وبعيدا عن التعصب القومي والروح القومية البورجوازية وعلى طليعة الطبقة العاملة ان تستوعب مغزى الحقيقة التي نسطع من قول لينين بان ((الوطنية هي من اعمق المشاعر وقد وطدتها قرون وقرون وآلاف السنين من الكيانات المتقوية على نفسها)) على الطليعة ان تعرف ان هذه المشاعر العميقة جدا قد اصبحت قوة مادية من جراء تغلغلها في صفوف الناس ومثل هذه القوة العاتية ذات الجذور الراسخة في التاريخ لا يمكن ولا يجوز تجاهلها خاصة لان الوطنية هي من المشاعر الانسانية النبيلة باعتبارها تجسد حب الوطن ومشاعر التعلق بمصالحه والعمل على تحريره وتخليصه من الامبريالية والفاصبين الظالمين الاجانب . والوطنية هي في الوقت الحاضر في بلدان اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية من اعمق المشاعر الثورية المعادية للامبريالية العالمية وللاضطهاد القومي وهي بالتالي غدت قوة ثورية فاعلة في المجتمع تساهم بدورها الكبير في تأجيج المشاعر الثورية المعادية للامبريالية وانارة الحماسة للشروع في النضال الثوري لتحرير هذه البلدان من الامبريالية العالمية .

وهذا يعني ان الوطنية الثورية هي في عصرنا احدى أهم القوى الثورية في معركة الكادحين الدائرة مع الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة . ولذلك فان الطليعة اذا لم تحتضن هذه المشاعر ولم تتول قيادة تيارها الثوري ستعجز عن تولي دور القيادة في الحركة الوطنية الثورية كما تعجز عن المساهمة في تطوير الوطنية وتعميق مضمونها الاجتماعي الديمقراطي والتقدمي وفي بلورة شعاراتها باتجاه ثوري وجماهيري مما يعني افساح المجال للبورجوازية لتتولى دور القيادة في الحركة الوطنية ولتغمد فيها وتبث فيها مفاهيمها القومية الضيقة والشوفينية .

حقا ان الطبقة العاملة تتبنى الاممية البروليتارية في شعاراتها وسياستها العامة ولكن « الوطنية هي الان في واقع الامر تطبق عملي للاممية في حرب التحرر الوطني » على حد تعبير الرفيق ماوتسي تونغ . ولذلك فلا تعارض مطلقا بين الوطنية الحقة ، وطنية المناضلين الثوريين ، وطنية الشغيلة الثوريين وبين الاممية الحقيقية التي تعني التآخي والكفاح المشترك والتلاحم الكفاحي بين شغيلة جميع الامم ضد الامبريالية والرأسمالية الدولية وفي سبيل تحرير جميع الشعوب وانقاذ شغيلة جميع البلدان من الاضطهاد والاستغلال ، كما تعني وحدة مصالح شغيلة جميع البلدان وضرورة توافقها وانسجامها مع المصالح الاساسية العامة للثورة الاشتراكية العالمية وتتطلب من البلدان التي انتصرت الاشتراكية فيها تقديم العون المادي والمعنوي للامم المظلومة وللطبقات العاملة المناضلة . لذلك فان الاممية لا تتعارض مع الوطنية الصادقة » .

يقول الرفيق ماوتسي تونغ :

« فنحن امميون ووطنيون في آن واحد وشعارنا هو القتال ضد المعتدين دفاعا عن الوطن » . لذلك فقد اخطأت الاحزاب الشيوعية التي ابتعدت عن الحركات القومية الفدمية في بلدانها واتخذت منها موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث بها . فلقد كان واجبها ان تدرس هذه الحركات القومية الحررة وتفهم حقيقة ان « عصرنا هو عصر القومية الوطنية تحدده الظروف التاريخية » . فالقومية هي قومية تقدمية وثورية وقوة فاعلة وحليفة للمجتمع ناثرا اجابيا لصالح الثورة .

واذا ما احتضنت وقادت الطبقة العاملة التيار القومي العام وارشدته في طريق تقدمي ثوري في نضالها كفاحي مع نضالات الشعوب الثورية الاخرى مثل هذه الحركة القومية ستكون حركة تقدمية ديمقراطية ثورية وتتحول الى رافد هام من روافد الثورة الاشتراكية العالمية .

ان تجاهل التيار القومي ـ الذي هو تيار تاريخي موضوعي ـ والانعزال والابتعاد عن جماهيره الفقيرة ثوري الى الانعزال عن الحركات الشعبية والى الانخراط في درب « الهامش من الاحداث » وحينئذ لا تستطيع الطبقة العاملة ان تقود الجماهير الشعبية خاصة في مرحلة التحرر الوطني التحررية . وحينئذ لا تستطيع قيادة الحركة الوطنية والجماهير الكادحةالاخرى من الاستقلال والاستقلال وما لم تتم تحرير الوطن والشعب من الامبريالية ، وما لم تقم الطبقة العاملة بقيادة الحركة الوطنيه التحررية .

« اذ ان دحر المعتدين وتحرير امتنا امر لا يمكن انجازه الا اذا حاربنا دفاعا عن الوطن ، كما انه لا يمكن تحرير البروليتاريا ومسائر الشعب الكادح الا اذا تحررت الامة » . ماوتسي تونغ . راجع كراس دور الحزب الشيوعي الصيني في الحرب الوطنية .

ان الحزب الطليعي الثوري المسلح بالنظرية الاشتراكية العلمية معزل نفسه عن تيار التطور التاريخي وعن الجماهير الفقيرة عندما يتبنى التيار الوطنية بمفولات كوسموبوليتية او لا يسرع الى رفعها والانضواء مع الجماهير الشعبية وفي مقدمة صفوفها تحت لوائها .

واذا لم يحمل الحزب الطليعي الثوري عالية الراية الوطنية ، حملتها البورجوازية وكسبت مساندة وعطف الجماهير المنصوبة تحت لوائها وبذلك يفقد الحزب الطليعي الثوري القدرة للتأثير على الاحداث والقدرة على مزاولة وممارسة دوره الطليعي فعلا .

يقول الرفيق لين باو :

« لقد برهن التاريخ على انه امام العدوان الامبريالي الفظيع يجب على الحزب الشيوعي ان يرفع عاليا الراية الوطنية ويستخدم هذا السلاح : الجبهة المتحدة ، ليلف حوله جماهير الشعب وسائر الوطنيين المناضلين ضد الامبريالية الذين يشكلون اكثر من تسعين في المائة من مجموع سكان البلاد ، وليعبىء الى اقصى حد جميع العناصر الايجابية ويتحد الى اقصى درجة مع جميع القوى التي يمكن الاتحاد معها ، ويعزل العدو المشترك للامة كلها الى ابعد الحدود واذا نبذنا الراية الوطنية ، واتخذنا خط الباب المغلق ، وعزلنا انفسنا بذلك فسنكون معارضة للسادة وتطوير قضية الثورة الشعبية خارجة عن الموضوع ، ومعنى ذلك في الواقع اننا قدمنا المساعدة الى العدو وعرضنا انفسنا للهزيمة » . ص ٢١ ـ ٢٢ من كراس عاش انتصار الحرب الشعبية .

واخيرا فان الذي يصعد ان الطلائع البروليتارية الثورية مجردة من المشاعر القومية ومن الشعارات القومية التقدمية ، ترتكب غلطة الكوسموبوليتية وغلطة ابعاد الطبقة العاملة عن مهمتها في قيادة الحركة القومية التقدمية .

يقول لينين :

« ونحن البروليتاريين الروس المدركين ، هل نحن براء من شعور الكرامة القومية ؟ كلا بالطبع طبعا نحب لغتنا ، نحب وطننا ونحن نبذل قصارى جهودنا لكي ننهض بجماهير شغيلته (اي تسعة اعشار سكانه) الى مستوى حياة الادراك ، الى مستوى حياة الديمقراطيين والاشتراكيين . ونحن نشعر بالالم الذي يحز في قلوبنا عندما نرى ونحس ما يكابده وطننا الجميل على ايدي الجلادين خدام القيصر والاعيان والرأسماليين من الاوغاد المتعفن والظلم والخسف » . ثم يستطرد قائلا :

« ونحن معنيون بالكرامة القومية لان الامة الروسية قد انشأت هي ايضا طبقة ثورية .. » راجع مقالة لينين بصدد كرامة الروس القومية . لم كيف تحقق الطبقة العاملة قيادتها في الحركة الوطنية التحررية اذا هي تجاهلت المشاعر القومية ؟ والحقوق القومية؟ وكيف تستطيع قيادة الجماهير الشعبية اذا لم تعبر عن مطامحها القومية المشروعة ؟

لذلك فان الطبقة العاملة يجب ان تعبر اصدق تعبير عن المشاعر القومية الفدمية والمطامح القومية المشروعة . وطبيعي ان الطبقة العاملة تعبر عن ذلك حسب مفاهيمها التقدمية الانسانية المثالفة للشوفينية والكوسموبولتية والانعزالية القومية وبعيدا عن مفاهيم السلم الطبقي وانكار النضال الطبقي بحجة « القومية » او صيانة « وحدة الامة » . والطبقة العاملة لا تستطيع ان تستفيد من نظريتها ـ النظرية الاشتراكية العلمية ـ ولا من الفلسفة الماركسية اللينينية والصهيونية وتخلق امكانيات قيام العرب بتاميم نعظم وبناء المجتمع الاشتراكي وبانزال ضربات ساحقة بالامبريالية الدولية . والحزب الطليعي العربي الذي لا يدرك هذه الحقائق ويعتبر الوحدة العربية او الدولة العربية الواحدة شعارا خياليا كالدولة العالمية مثلا يرتكب غلطة مبدئية وسياسية كبرى . كما يخطىء الذين يعتقدون بان البورجوازية العربية تستطيع تحقيق الوحدة العربية . لان الطبقة الوحيدة التي تستطيع ان تبنى وحدة عربية تقدمية ثابتة هي الطبقة العاملة حينما تتصدر وتقود نضال جماهير الامة العربية من فلاحين وكادحين وكسبة ومثقفين ثوريين .

ممارسة العمال لدور القيادة

ـــــ دور الفلاحين في الثورة ـــــ

تعرض الفلاحون خلال قرون من الزمن الى الاضطهاد والى الاستغلال من قبل الاقطاعية وممثلتها السياسية الانظمة الملكية الاوتوقراطية . وعلى اكتاف الفلاحين دارت طاحونة الحروب التي شنتها الانظمة الملكية والامبراطوريات القديمة وبدمائهم ادبرت .

فقد كانت الجيوش ومصارفيها تجبى وتجمع من الفلاحين غالبا ، وكان القادة والزعماء من مصاصي دمائهم او من عملاء هؤلاء الطالمين القساة .

لذلك فان نضال الفلاحين ضد مضطهديهم ومصاصي دمائهم كان عبر التاريخ شيئا طبيعيا ومشروعا . ولكن التاريخ يثبت ان الفلاحين كانوا دوما احتياطيا للثورة ووقودا لها او قوى اساسية فيها دون ان تكون لهم القيادة في الثورة . فارتباط الفلاحين بالانتاج الزراعي الفردي وعلاقاتهم باساليب الانتاج الصغير البالية جعل منهم فئات عديدة ومبعثرة لا تقبل التنظيم والطاعة والانضباط بسهولة بل بصعوبة وبطء وتردد . ففي العصور الاقطاعية المظلمة حدثت ثورات فلاحية عديدة ولكنها لم تحقق النصر ولم تواصل النضال طويلا .

وفي عهد الثورة البورجوازية في غربي اوروبا نهضت جموع الفلاحين للقتال تحت قيادة البورجوازية ضد الحكم الملكي الاوتوقراطي الممثل للاقطاعية والاستبداد .

يقول ستالين بهذا الخصوص ما يلي :

« ان الثورات البورجوازية في الغرب (انكلترا ، فرنسا ، المانيا ، النمسا) سلكت كما هو معلوم طريقا اخر . فهناك لم تكن السيادة في الثورة للبروليتاريا التي لم تكن تمثل ولم يكن من الممكن ان تمثل نظرا لضعفها ، قوة سياسية مستقلة ، بل كانت السيادة للبورجوازية الليبرالية . هناك لم يتم انقاذ الفلاحين من النظام الاقطاعي على يد البروليتاريا التي كانت قليلة العدد وغير منظمة ، بل تم على يد البورجوازية . هناك مشى الفلاحون ضد النظام القديم مع البورجوازية الليبرالية . هناك كان الفلاحون احتياطيا للبورجوازية . هناك بالتالي ادت الثورة الى تقوية وزن البورجوازية السياسي تقوية عظيمة » . ص ٧٧ ـ من اسس اللينينية وحول المسائل اللينينية ـ الطبعة العربية ـ دار ابن سينا ـ بيروت ـ ١٩٦٧ .

اما بالنسبة لحركة البروليتاريا الاوروبية ونضالها في سبيل الاشتراكية فقد اشار ماركس الى ضرورة التوفيق بين الحركة الثورية الفلاحية والثورة البروليتارية وهي الفكرة التي صاغها في رسالة وجهها الى انجلس في عام ١٨٥٦ وقال فيها « سيكون كل شيء في المانيا متوقفا على امكان دعم الثورة البروليتارية بطبعة جديدة من حرب الفلاحين » .

والواقع ان الفلاحين المضطهدين وخاصة فقراء الفلاحين ، يملكون طاقات ثورية لا يمكن بدون تفجيرها وتشغيلها احراز النصر في الثورة الديمقراطية او الاشتراكية .

وقد ادرك هذه الحقيقة بوضوح فلاديمير ايليتش لينين وصاغ على اساسها نظرية التحالف بين العمال والفلاحين في الثورة الديمقراطية وفي الثورة الاشتراكية وبذلك اوجد لينين حليفا قويا للبروليتاريا الثورية وضمن بذلك التحالف انتصار البروليتاريا في الثورة الاشتراكية .

وكان موضوع الخلاف مثار النقاش والجدال بين الثوريين الروس عامة وبين الماركسيين والشعبيين خاصة . اذا « كان الشعبيون يذهبون خطا الى ان القوة الثورية الرئيسية في طبقة الفلاحين لا العمال في الامكان دك سلطان القيصر وكبار ملاكي الاراضي بحركة التمرد يقوم بها الفلاحون وحدهم ولم يكن الشعبيون يعرفون الطبقة العاملة او يدركون ان ليس بوسع الفلاحين وحدهم التغلب على القيصرية وعلى كبار ملاكي الاراضي ما لم يحالفوا الطبقة العاملة وينضووا تحت لوائها ـ ولم يفطن الشعبيون الى ان طبقة العمال هي اشد طبقات المجتمع ثورية واسبقها في مضمار التقدم » . راجع تاريخ الحزب البولشفي ـ الفصل الاول .

الا ان اراء الشعبيين قد دحضت من قبل بليخانوف الذي يعود الى كتاباته الماركسية الاولى الفضل الاكبر في غلبة الماركسية على الشعبية .

فقد بين بليخانوف ان الفلاحين المؤلفين من مزارعين منفردين ـ هم رغم كثرة عددهم ـ الطبقة الكادحة المرتبطة باشد اشكال الاقتصاد تاخرا وهو الانتاج الصغير ولذلك فليس لهم مستقبل كطبقة العمال خاصة اذ انهم ينقسمون دورا وباستمرار الى فلاحين اغنياء (بورجوازيين) والى فلاحين مدقعين (اشباه البروليتاريين وبروليتاريين) ثم ان الفلاحين لعدم تكلهم وبحكم وضعهم كملاكين صغار لا ينقبلون التنظيم بسهولة ويسر ولا يتبعون الحركة الثورية بمثل السرعة التي يتبعها العمال .

الا ان بليخانوف لم يدرك اهمية الفلاحين واهمية تحالفهم مع العمال ولا الطاقة الثورية الكامنة في الفلاحين الفقراء والمعدمين ولقد قام لينين بتوضيح هذه الاهمية للحركة الفلاحية وقدم في مؤلفه « من هم اصدقاء الشعب » فكرة التحالف الثوري بين العمال والفلاحين لاول مرة باعتبار هذا التحالف هو الوسيلة الرئيسية لقلب حكومة القيصر وكبار ملاكي الاراضي . يقول لينين :

« ينبغي بذل جميع الجهود كي يتعزز التحالف بين البروليتاريا الثورية الاشتراكية وبين الفلاحين الثوريين ويزداد قوة وباسا وينمو ويصبح ناضجا حين يحين حل الازمة السياسية الحالية القادم الذي لا مناص منه . ففي هذا التحالف وفيه فقط يمكن نجاح حل القضية التي تتعلق بتسليم الفلاحين « جميع الاراضي » وبتسليم الشعب كل الحرية كل السلطة » ولذلك اوجب لينين على حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي ان يناضل من اجل تخليص الفلاحين من نفوذ البورجوازية وايجاد تحالفهم مع البروليتاريا وجرهم تحت لواء قيادة البروليتاريا وذلك على الرغم من علمه التام بتذبذب الفلاحين وترددهم لانهم القوة الجدية الوحيدة التي يمكن ان تقبل التحالف بقيادة البروليتاريا به ليمكن احراز النصر في الثورة .

وكان لينين يدرك جيدا ان « بين الفلاحين جماهير من العناصر نصف البروليتارية الى جانب العناصر البورجوازية الصغيرة » وكلاهما فئتان اجتماعيتان ثوريتان وكان يؤمن بان « جماهير الفلاحين دون ان تصبح اشتراكية ودون ان تكف عن كونها بورجوازية صغيرة يمكن ان تصبح من اشد انصار الثورة الديمقراطية واكثرهم حزما . وهي ستصبح كذلك حتما اذا لم ينقطع مجرى الحوادث الثورية ـ هذه الحوادث التي تثقف جماهير الفلاحين انطفاءا مبكرا بنتيجة خيانة البورجوازية وانهدار البروليتاريا . فبهذا الشرط تصبح جماهير الفلاحين حتما حصن الثورة والجمهورية اذ ان ثورة ظافرة تماما هي وحدها التي تستطيع ان تعطي جماهير الفلاحين كل شيء في ميدان الاصلاحات الزراعية ، ان تعطيها كل ما ترغب فيه وكل ما تحلم به ، وكل ما هو لازم حقا لها » راجع لينين ـ خطتان للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية .

والواقع ان لينين قد اعار المسالة الفلاحية اهمية كبيرة حتى ظن البعض « ان القضية الاساسية في اللينينية هي مسالة الفلاحين وان نقطة انطلاق اللينينية هي مسالة الفلاحين دورهم واهميتهم » ولكن هذا غير صحيح قطعا وذلك لان « المسالة الاساسية في اللينينية ونقطة انطلاقها ليست مسالة الفلاحين بل مسالة ديكتاتورية البروليتاريا ، مسالة الفوز بها مسالة توطيدها ان مسالة الفلاحين ، باعتبارها مسالة حليف البروليتاريا في نضالها في سبيل السلطة هي مسالة مشتقة » . ص ١٦٣ من حول مسائل اللينينية ـ الطبعة العربية بقلم ستالين .

في العدد القادم : اهداف الجبهة الوطنية التقدمية المتحدة